مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

AR	إجابة الأمير عبد القادر وأحمد أبن أبي الضياف على أسئلة الفرنسيين عن المرأة المسلمة
ENG	The answer of ElAmir Abd elQadir and Ahmed ibn Abi Diyaf to the French questions about Muslim women
FR	La réponse du ElAmir Abd elQadir et Ahmed Abn Abi Diyaf aux questions françaises sur la femme musulmane

د.منى صاحي DR.MOUNA SALHI

قسم التاريخ جامعة المسيلة - الجزائر

Mohammed Boudiaf University of M'Sila

تاريخ الارسال	تاريخ المراجعة	تاريخ القبول للنشر
2018/06/19	2018/06/30	2018/07/05

ملف للقراءة

الملخص:

يتناول المقال دراسة مقارنة بين إجابتي الأمير عبد القادر وأحمد ابن أبي الضياف التونسي على أسئلة الفرنسيين عن قضايا المرأة؛ وعلى الرغم من أنهما لم يهتما بالكتابة عن المرأة، وأن مصدر الأسئلة فرنسي كانت له من ورائها أهداف سياسية استعمارية؛ فقد أجمع الباحثون على أن إجابتهما تعدان وثيقتان تاريخيتان هامتان، وهي أول صياغة صريحة لموقف كل من ابن أبي الضياف والأمير عبد القادر في الموضوع، وهي تعكس لنا من جهة صورة المسلمين في نظر الغربيين، ومن جهة أخرى تبين لنا كيف كان المسلمون ينظرون إلى حالتهم مقارنة بحالة الغربيين. ومن خلال إجابتهما سندرس أيضا مدى التقارب الفكري بينهما، ونستنتج وضعية المرأة المسلمة في كل من الجزائر وتونس في منتصف القرن التاسع عشر.

Résumé en français

Cet article est une étude comparative des réponses d'Elamir Abdelkader et d'Ahmed Ibn Abi Diyaf ElTunisi aux questions françaises sur les problèmes des femmes musulmanes; bien qu'ils ne se soucient pas de l'écriture des femmes, et que la source des questions était un objectif politique colonial français; les chercheurs ont convenu que leurs réponses Ce sont deux documents historiques importants, la première formulation explicite de la position d'Ibn Abi Al-Diyaf et Elamir Abdul Qadir sur le sujet, qui nous reflète du point de vue des musulmans dans la considération des Occidentaux, et l'autre nous montre comment les musulmans regardent leur situation par rapport à la situation des Occidentaux. A travers leurs réponses, nous examinerons également l'ampleur de leur rapprochement intellectuel,

et nous en déduisons la position des femmes musulmanes algériennes et tunisiennes musulmanes au milieu du XIXe siècle .

Abridged summary:

The article discusses a comparative study between the answers of el Amir Abdelkader and Ahmed Ibn Abi Diyaf elTunisia to the French questions about Muslim women's issues; although they did not write about women, and that the source of the questions had political objectives behind them, the researchers agreed that their answers Two important historical documents, the first explicit formulation of the position of Ibn Abi Dhiyaf and elAmir Abdul Qadir in the subject, which reflects us on the image of Muslims in the eyes of Westerners, on the other hand shows us how Muslims look at their situation compared to the situation of Westerners.

We started our study by knowing the source of the French questions, and knew the liquid. Then we discussed the situation of Muslim women in the middle of the 19th century, in which we discussed the position of el Amir Abdul Qader and Ibn Abi diyaf from the education of women, and the level of education they reached. Through the questions, we addressed the issues raised by the French, namely the equality of women and how to treat them. We then approached the two questions on marriage, divorce and women's exit.

We finally found several results:

That the questioner was asking about the actions of Muslims more than the question of the rule of the Islamic religion. Is it here that distinguishes between Islam and the actions of Muslims or not? And most likely that he is asking about the actions of Muslims and meant by Islam, and this is the

suspicions that the colonial thought was seeking to publish, and the difference between el Amir Abdul Qadir and Ibn Abi Dhiaf in some of their answers.

Although the answers of el Amir abd Qadir and Ibn Abi Dhiaf mostly limited to the legitimate rule, and perhaps because they do not want to face the liquid by adopting what is prevalent, resorted to what was approved by the law, and may be a defensive tendency was intended to support Islam, because they sense that the liquid His goal is Islam by talking about reality, but they are sometimes orchestrated behind what the liquid intended, and they are subject to the status of women, and it seems to me that if the respondent is limited to the legitimate rule; the phenomenon may already exist in society and not from the imagination of the liquid. In the case of strong denials and denials, they may be non-existent or rare, and examples are numerous.

- I did not find any diligence on women's issues, and in some cases they were the same as in society.

- The cultural situation of the society was low, whether in colonial Algeria or Tunisia prior to colonialism.

The society does not accept the education of women or their departure from their homes because of the fear of strife and jealousy against them.

- The subject of women in the nineteenth century still needs to be studied carefully

مقدمة:

تجلت السيطرة الأوروبية على العالم في القرن التاسع عشر، وكانت في شكل استعمار من نوع جديد لم تعرفه البشرية من قبل، حيث امتد إلى جميع نواحي الحياة وأثر عليها؛ وكان يقوم على تفكيك المجتمعات الشرقية من الداخل. فسخرت فرنسا لهذا الغرض قادتها وساستها وعلماءها، وفتحت المجال للمناظرات والمحاورات حول القضايا الدينية، والتي كانت سمة للقرن التاسع عشر. حيث طُرحت عدة أسئلة عن المرأة على شخصيات مسلمة، ومنهم الأمير عبد القادر وأحمد ابن أبي الضياف.

هناك أسئلة كثيرة طرحها الفرنسيون عن: مساواة المرأة بالرجل في الميراث والخروج والحج والصلاة في المسجد، وعن تعليم المرأة وعملها، وغيرها من الأسئلة التي تثير فعلا فضول الباحث لمعرفة الوضعية الحقيقية للمرأة المسلمة في القرن التاسع عشر، هل ما وصفه الفرنسيون كان موجود فعلا أم أن القصد منه تشويه الإسلام؟ ثم ما موقف قادة الفكر والدين والسياسة المسلمين من ذلك؟ هل كانوا راضين عنها، أم أنهم كانوا يسعون لتغييرها؟ ماهي أوجه التوافق والاختلاف بين الأمير عبد القادر وابن أبي الضياف في قضايا المرأة ؟

هناك أوجه تقارب كثيرة بين شخصية الأمير عبد القادر [1] وأحمد بن أبي الضياف التونسي [2]، فقد عاشا في الفترة نفسها، وفي مجتمع مغاربي خاضع للسيادة التركية ثم السيطرة الفرنسية، متقاربان أيضا في نوعية التعليم الذي تلقياه، فكل منهما تلقى تعليما دينيا على مشايخ عصره، واشتغلا بالسياسة لكن مواقفهما السياسية مختلفة، فابن أبي الضياف كان مقربا من العثمانيين فهو كاتب الباي ورسوله إلى استانبول وزار فرنسا في سنة 1846 حيث بدأ يتأثر بالحداثة الأوروبية. بينما الأمير عبد القادر فكان في خلاف مع العثمانيين وعندما سقطت مدينة الجزائر بيد الاستعمار، عدَّ ذلك نهاية الحكم التركي

للجزائر. ومهما كانت أوجه الاختلاف فإنهما يُعدّان من وجوه بداية الإصلاح الحديث، وكانا شاهدين على وضعية المجتمعات الإسلامية والمرأة بصفة خاصة في القرن التاسع عشر.

وعلى الرغم من أنهما لم يهتما بالكتابة عن المرأة، وأن مصدر الأسئلة فرنسي كانت له من ورائها أهداف سياسية استعمارية؛ فقد أجمع الباحثون[3] على أن إجابتهما على أسئلة الفرنسيين عن المرأة، تعدان وثيقتان تاريخيتان هامتان، وهي أول صياغة صريحة لموقف كل من ابن أبي الضياف والأمير عبد القادر في الموضوع، وهي تعكس لنا من جهة صورة المسلمين في نظر الغربيين، ومن جهة أخرى تبين لنا كيف كان المسلمون ينظرون إلى حالتهم مقارنة بحالة الغربيين.[4]

1-ماهو مصدر أسئلة الفرنسيين عن المرأة؟

نشر الباحث المنصف الشنوفي في حوليات الجامعة التونسية العدد5 /1968 وثيقة تاريخية من تأليف أحمد ابن أبي الضياف التونسي بعنوان "رسالة ابن أبي الضياف في المرأة"، وهي عبارة عن مخطوط نشر لأول مرة. كما قدم لها وبين نسخ المخطوط وأماكن تواجدها، والرسالة هي إجابة عن 23 سؤالا طُرح على ابن أبي الضياف. وبعمله هذا أضاف إلى رصيد ابن الضياف مصدرا جديدا ومهما.

قال الشنوفي في تقديمه أن الذي طرح الأسئلة هو ليون روش(Léon Roches) القنصل الفرنسي بتونس في الفترة مابين"1853-1863"،[5] لكن أدلته لم تكن كافية لإثبات أن ليون روش هو السائل، لذلك رد عليه الباحث أحمد عبد السلام في العدد 1988/28 من المجلة نفسها، ويقول إن حجج الشنوفي لم تناقش إلى ذلك التاريخ، والعنوان الأصلي للوثيقة هو "أسئلة من تلقاء أوروبا وأجوبتها للشيخ ابن أبي الضياف بخطه"، هو العنوان الرئيسي في الصفحة الأولى من "المخطوط الأم"،[6]والذي دعا أحمد عبد السلام إلى الرد على الشنوفي هو كما قال:"وجود وثائق ونصوص تدعو إلى مراجعة الرأي وهي كتاب "رسائل ابن أبي الضياف تتمة إتحاف أهل الزمان"، من تحقيق محمد صالح مزالي، وقد نُشر قبيل

مقال الشـــنوفي وذكره في مقاله. "وهذا الكتاب هو مجموع رســـائل بعثها أحمد ابن أبي الضـياف إلى الجنرال خير الدين حينما كان في باريس فيمابين (1857-1854)، ويرجح أحمد عبد السلام أن تكون الأجوبة هي عن "الأسئلة من تلقاء أوروبا"، ذلك لأن تاريخ الرسالة كما ذكرها الشـــنوفي مؤرخة في 6 جمادى الثانية 1272هـ(3 فيفري 1856)، أما "الأســـئلة من تلقاء أوروبا" فبعد هذا التاريخ بستة أيام أي في 12 جمادى الثانية.

لكن الســـؤال الـذي لم يجـد إجـابـة يقينيـة هو من طرح الأســـئلـة على ابن أبي الضـــياف؟ فالباحث يســـتبعد أن يكون ليون روش، وقد يكون هذا صـحيحا، حيث يقول أحمد عبد الســلام إن العنوان الأصـلي هو:"أســئلة من تلقاء أوروبا" فكلمة "تلقاء" لم تأت عبثا، فهي تدل على مصـــدر الأســـئلة، فهي ترددت على مســـامع خير الدين بباريس فأحس بالحاجة إلى الأجوبة عليها...فلخص خير الدين ماكان متعلقا بالمرأة وطلب من أبي الضـــياف الإجابة عنها".[7]

لكن حجة أحمد عبد السلام أيضا غير مقنعة، وقد أشار في مقاله إلى "أن الباحث في مثل هذه الميادين الدقيقة لايمكن أن يحيط بكل الوثائق، ولاضير عليه أن يعثر غيره على وثيقة جديدة أو يفطن إلى تأويل جديد لنص معروف".[8]ومن هذه المعطيات يمكننا أن نبدي رأينا في مصدرها؛ فالأسئلة نفسها التي طُرحت على ابن أبي الضياف، طرحها الجنرال دوماس (Daumas) على الأمير عبد القادر، حيث يقول الأمير محمد بن عبد القادر إن دوماس أرســل بأســئلة أجاب عنها الأمير عبد القادر،[9] وذلك عندما كان في قصـــر أمبواز (Amboise)[10].

وفي الفترة التي كان فيها خير الدين التونسي بباريس كان دوماس قد غادر الجزائر أيضـــا إلى باريس وعمل بوزارة الحربية. فهل نرجح أن يكون دوماس هو الذي ســـأل خير الدين، والأخير أرسل الأسئلة إلى ابن أبي الضياف؟ يؤكد أبو القاسم سعد الله أن دوماس من المهتمين بمعرفة المجتمع الجزائري، وقد طرح الأســـئلة نفســـها على عدة شـــخصـــيات

مسلمة. ومهما يكن من أمر فالسائل في جميع الحالات فرنسي يحمل الفكر الاستعماري، يسعى للتمكين له وسط المجتمعات الإسلامية المغاربية.

إن طرحت مشكلة مصدر الأسئلة عند ابن أبي الضياف، فبالنسبة للأمير عبد القادر مصدرها معروف وهو الجنرال دوماس، ولكن المشكلة التي أثارت الجدل: هل الإجابة التي أوردها الأمير محمد هي إجابة الأمير عبد القادر فعلا، أم أنه نقلها من مصدر لم يذكره، ولم يتحقق من صحتها؟ فقد تعرض كتاب تحفة الزائر للسرقة والحرق، وترجع الأميرة بديعة سبب ذلك إلى عدم موافقة إخوة الأمير محمد على بعض ماجاء في الكتاب، ومنها الإجابة على الأسئلة وبخاصة رأي الأمير عبد القادر في تعليم المرأة[11].

من هو دوماس Daumas؟ هو (Melchior-Joseph-Eugène Daumas) ولد في 1803في ديليمون بسويسرا وتوفي في 1871بـ(Gironde)، جده طبيب عسكري ووالده الجنرال (Marie-Guillaume Daumas)،درس أوجان دوماس في البداية الطب، لكن انتقال والده إلى باريس أجبره على دخول النظام العسكري، وانتقل إلى الجزائر في سنة 1835 وقدم مع الجنرال كلوزال إلى معسكر وتلمسان.

استغل معرفته باللغة العربية وتعرف على الأهالي، وبعد عقد معاهدة التافنة عين قنصلا فرنسيا في معسكر، وبقي هناك من 15 نوفمبر 1837 إلى 15 أكتوبر 1839، وفي هذه الفترة جمع ثروة هائلة من المعلومات المهمة، وأسس مكتب معلومات بوهران للنظر في كيفية إدارة الأهالي. وفي سنة 1841 أنشأ الجنرال بوجو إدارة شؤون الأهالي؛ وعين دوماس مديرا مركزيا للشؤون العربية، ثم بعد ذلك أنشئت المكاتب العربية. وفي 1845 أصبح برتبة كولونال. ثم غادر الجزائر حيث أصبح في 20 أفريل 1850مسؤولا عن المسائل الجزائرية في وزارة الحربية.

سمحت له فرصة قنصليته في معسكر، ثم إدارته لشؤون الأهالي، للتعرف أكثر على المجتمع الجزائري، وقد تقلد مناصب عسكرية وإدارية، وله معرفة باللغة العربية،

وبعادات وتقاليد الأهالي، وقد نشـر كثيرا من الأعمال وبخاصـة المقالات، عن الصـحراء والخيل والعادات والتقاليد وغيرها من المواضـيع. وكل الذين كتبوا عن الأمير عبد القادر اعتمدوا على وثائق دوماس. فقد كان دوماس وليون روش من الذين يعرفون الأمير عبد القادر جيدا. ومن كتبه "المرأة العربية" الذي أملاه في نهاية حياته وبقي مخطوطا إلى أن نشرته المجلة الإفريقية في سنة 1912.[12]

2--وضعية المرأة الجزائرية والتونسية في منتصف القرن التاسع عشر:

أثار السـائل عدة قضـايا رأى فيها تدني مكانة المرأة في المجتمع الإسـلامي، ومنها التعليم والعمل والمعاملة

ا-تعليم المرأة: في سـؤال أن نسـاء العرب لايتعلمن وهذا ما يوقعهن في الفسـاد، تتشـابه إجابة الأمير عبد القادر وابن أبي الضـياف، والغريب أنهما لايجيزان تعلم المرأة الكتابة. ولايسـتدلان على ذلك بالنصـوص الشـرعية كبقية الإجابات، وإنما يعتمدان على أقوال العرب وما اسـتنتجه عقلاهما، ظنا منهما ألا حاجة للمرأة في الكتابة، وقد تؤدي بها إلى الفساد.

يقول الأمير عبد القادر على تعليم المرأة الكتابة والعلم:"اعلم أن الكتابة مثل السـيف من وظائف الرجال لا من لوازم النسـاء، فالكتابة يحتاج إليها الرجال يجمعون العلوم ويقيدون الحكم ويضـبطون الخراج...أما النسـاء فلا يؤلفن كتابا ولا يسـتنبطن صـناعة ولا فائدة فيحتجن إليها إلى تقييدها بالكتابة لينتفع بها الناس ولا يتولى النسـاء قبض الخراج ولا صـرف المال في مصـارفه، ولا بشـئ من الوظائف التي تحتاج إلى كتابة فلا فائدة في تعليم النسـاء بل فيها ضـرر كبير"[13]، ويضـيف ابن أبي الضـياف أن الله خفف عليهن الولايات المقتضية للعلم من إمارة وقضاء.[14]

ومن الحجج التي اتفقا عليها في عدم تعليم المرأة، أن الكتابة تعبير عن الضـمير مما لاينطق به اللسـان، وتأثير الأقلام أوقع من تأثير اللسـان، فإن تعلم النسـاء للكتابة

ذريعة إلى مخالطة الرجال، ويسهل عليها الكتابة لمن تهواه، ويكون ذريعة للزنا، لذا يرى الأمير كراهية تعليم المرأة الكتابة، وهي واجبة في حق الرجل.[15] ويضيف ابن أبي الضياف إلى أن تعلم المرأة فيه تشبه بالرجال. كما أن المرأة إذا تعلمت قد تصبح أفضل من الرجل، والرجل يشتهي أن يكون هو الأفضل. ثم إن المرأة إذا اشتغلت بالعلم قصرت في حق زوجها. ويتفقان أيضا على أنه على المرأة أن تتعلم الضروري من أمور دينها، وشؤون البيت، وتتعلم كيف تتحبب إلى زوجها وتتقرب منه وتخدمه، فالنساء خلقن للرجال كما أن الرجال خلقوا للنساء.

أثارت إجابتهما الكثير من الجدال في الموضوع، فقد استنكر أبناء الأمير وأحفاده هذا الموقف الذي ذكره الأمير محمد في كتابه، واحرقوا الكتاب لكنه أعاد كتابته بالمغالطات التاريخية نفسها، وترى الباحثة بشرى خيربك[16] وباعتمادها على أقوال أحفاده أنه لايعقل أن ينهى الأمير عبد القادر عن تعليم المرأة، في الوقت الذي كانت بناته وأمه تعرفن الكتابة، ومن المعروف اهتمام الأمير بالتعليم وكانت له مكتبة ضخمة متنقلة، احرقها الفرنسيون حينما هاجموا الزمالة. فالأمير على درجة من العلم والتقوى تجعله يعرف موقف الدين من العلم. ولاشك أن الأمير محمد قد نقل من كتب أجنبية مغرضة، ولم ينتبه إلى تمحيص فأوقعته في مغالطات كثيرة.

بينما ابن أبي الضياف فقد وقع مؤرخو الفكر الإصلاحي التونسي في مفارقة، كيف لابن أبي الضياف وهو من رواد الإصلاح أن يمنع المرأة من التعلم، فرأى بشير التليلي أن ابن أبي الضياف كان مناصرا لتعليم المرأة، ولكنه مشروط، ولم يرفض تعليم المرأة، ولكن الديني فقط، وعبر زهير الذوادي[17] عن مواقف ابن أبي الضياف أنها تقطع نصف المسافة بين المحافظة والتحرر وبخاصة في موضوع تعليم المرأة بأنه :"ليس محافظا أو توفيقيا بل أنه محاولة وضع الأساس الأول لفكر تحرري في المسألة".

فرأيهما في تعليم المرأة يدل على علمهما بما كان موجودا في المجتمع، فلم ينطلقا في هذه الإجابة من النصوص الشرعية ولا من التاريخ الإسلامي. وأقر كل منهما على أنه لايجب تعليم المرأة، إلا مايفيد دينها ومعاملة زوجها، فهل أرادا بذلك وضع الأساس الأول وهو تعليم أمور الدين؟ أم أنهما يبرران الوضع السائد، والذي ينم عن المستوى الثقافي المتدني الذي وصل إليه المجتمع والمرأة في الفترة، ويقول ابن أبي الضياف بصريح العبارة أنه "قليل من يعلم بناته"[18].

ب-المعاملة السيئة للمرأة: يتمحور سؤال هذه القضية حول ضرب الرجل للمرأة وتكليفها بمالاتطيق، وهذا لايوجد –حسب السائل- في البلاد الغربية. فأجاب الأمير عبد القادر أنه لايضرب النساء إلا أوباش الناس والسفهاء الذين لادين لهم، وقد نهى الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن ضرب النساء وأوصى بهن خيرا. وقد كانت إجابة الأمير مختصرة مقارنة بإجابة ابن أبي الضياف، الذي بسط القول في معاملة الرجل للمرأة من خلال الشريعة الإسلامية، والتي هي مبنية على الطاعة والاحترام، وبين الدرجة التي تضرب فيها المرأة ومقدار الضرب، وفي توسعه في الإجابة أتاح لنا معرفة بعض العادات بتونس في الفترة. لعله نتيجة الجهل والبداوة التي كانت سائدة فإن الرجل كان أحيانا قاسيا على المرأة، وقد تتعرض للضرب، وهي تعتز بذلك، ويذكر ابن أبي الضياف أن أهل المدن والقرى لايضربون النساء، ويرونه من العار وقبح الشعار، بينما يكثر ضرب النساء في البوادي لغلظ الطباع "حتى أن بعض نسوة البادية يطلبن من أزواجهن الضرب ويتعمدن فعل ماتقتضيه لتظهر لجارتها شدة حب الزوج في ملابستها[19]".[20]

واتفقا على أنه لاتكلف المرأة مالا تطيق، حيث يقول الأمير عبد القادر:"أما خدمة النساء وتكليفهن فوق طاقتهن فهذا مارأينا هو لانعرفه، بل الذي رأيناه وعرفناه أن الرجل إذا كان غنيا فإن زوجته لاتخدم شيئا."[21]ومن مسؤوليات الرجل أن يحضر لها من يعينها، وهذا ما أجاب به ابن أبي الضياف أيضا لكنه يفرق بين سكان البوادي وسكان المدن،

فطبيعة البادية تفرض كثرة العمل على المرأة والرجل على السواء وهذا من أسباب ذم سكن البادية.[22]

وبما أن عمل المرأة يقتصر على شؤون البيت، فالمرأة سيدة في بيتها لايتدخل فيها الرجل، يقول الأمير عبد القادر: "في عيال والدي ستين نفسا ووالدتي هي التي تحكم فيهم، وتنظر في أمورهم من أكل وكسوة وغير ذلك، ووالدي لايدخل في ذلك في شيء إنما يمثل أمرها"،[23] وهناك فرق بين المرأة في المدن والبوادي، ففي المدينة تقوم المرأة بشؤون البيت من طبخ وتنظيف، ويذكر ابن أبي الضياف أن البنات يُرَبَيْنَ على الخياطة والطرز، وعلى كل امرأة أن تخيط ملابس زوجها وهو دأب النساء في الحواضر.أما إذا كان الزوج غنيا فيجعل لها خادمة، وعليها هي الأمر والنهي وما خفّ من العمل، وقد تقوم بالعمل حتى وإن كانت من بنات الأكابر، ويذكر الأمير عبد القادر أن والده "كان من الأشراف الأغنياء، وكان ببيته ستين نفسا بين خادم وخادمة، ومع ذلك فإن بناته ونساءه لم يتركن الخدمة اللائقة بهن في أوقاتهن المخصوصة".[24]

أما سكان البادية فالأعمال كثيرة وشاقة على الرجل والمرأة على السواء، إذ كانت النساء يحلبن الأغنام ويطحن الحبوب في البيت ولكل بيت رحى، أما استسقاء الماء واحتطاب الحطب فهو من عمل المرأة وتأنف أن يقوم به الرجل، خشية المعرة من جارتها إذا قصرت في ذلك. أما أهل الثروة في البادية فلاتخرج نساؤهم، ولهم الخدم يقومون بذلك، وعملهن هو نفش الصوف غزله والنسيج، بالإضافة إلى بعض مهن البيت.

3-مقاربة بين الإجابتين:

عدد الأسئلة التي وجهت إلى الأمير عبد القادر عشرون سؤالا، والتي وجهت إلى ابن أبي الضياف ثلاثة وعشرون، منها سؤالان مكرران بصيغة أخرى، وعشرون سؤالا متطابقة تماما وبشكل يكاد يكون حرفيا، وإن كانت ليست بالترتيب نفسه. وقد كانت هذه الأسئلة في بداية الصراع الحضاري بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي، فوجه السائل

نظر المجيب إلى وضعية المرأة المسلمة، فمن جملة واحد وعشرين سؤالا يوجد أحد عشر سؤالا يتمحور حول مقارنة المرأة المسلمة بالمرأة في الغرب، وتضمنت الأسئلة قضايا مهمة، والتي أصبحت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين هي الأساس في حركة تحرير المرأة، ولعل بعضها لايزال مطروحا إلى اليوم. وسياق الأسئلة يدل على أن السائل كان لايجهل الإجابة وإنما طرح الأسئلة بشكل استفزازي حتى يعطي المجيب رأيه بصراحة، ويفصل القول ويكشف عن وجهة نظره الخاصة.[25]

اعتمد كل من الأمير عبد القادر وابن أبي الضياف في إجابتهما على الشريعة الإسلامية، وقد يكون السبب في ذلك هو تكوينهما الديني، كما اعتمدا على أقوال العرب، واستشهدا بنصوص من العهدين القديم والجديد، ولعلهما أرادا بذلك مقارنة حال المرأة في المجتمع الإسلامي بالمجتمع الغربي، أو لأن السؤال جاء من قِبل غير مسلم فاستدلا بنصوص من الأديان الأخرى. ويرى ابن أبي الضياف أن بعض الظواهر يجب أن تقبل لأنها موجودة في الطبع الإنساني، فهو يرجع تعدد الزوجات إلى القوة والشدة والغلظة التي ركبت في طبع الرجال. ومن أسباب الطلاق الخلاف الذي هو موجود في الطباع. والحاصل أن الطبع حجة قوية لدى ابن ابي الضياف برر بها ظواهر عديدة، وهذا الطبع يتفق أحيانا مع الحكم الشرعي.[26]كما نلاحظ أن الأمير عبد القادر توسع أكثر في الإجابة مقارنة بابن أبي الضياف. وإجابتهما كانتا دفاعية بالدرجة الأولى، وإن كانت تقليدية في معظم الأحيان.

وسندرس المحاور الكبرى للأسئلة ومقاربة الإجابتين.

أ-المساواة: من أهم القضايا التي طرحها السائل وتضمنتها عدة أسئلة، هي قضية مساواة المرأة بالرجل، ابتداء من الفرحة بالمولود الذكر وعدم خروج المرأة إلى الصلاة في المسجد والسفر إلى الحج ودفع الرجل المهر وقوامة الرجل والميراث وجنازة المرأة وعدم خروج النساء لشهود الجنائز ودخول الرجال الجنة دون النساء ، وغيرها من المسائل، من خلال الأسئلة نجد أن السائل يخلط بين ماهو موجود في الواقع وبين الأحكام الشرعية،

ففي إجابة كل من الأمير عبد القادر وابن أبي الضياف يقفان عند حدود النصوص الشرعية التي لا اجتهاد فيها، لاسيما قضية الميراث، وبيّنا الحكمة من اختلاف القسمة في الميراث بين الرجل والمرأة، وقد وصف المنصف الشنوفي ابن أبي الضياف بأنه سلفي معتدل يؤمن بالاجتهاد وبدور العقل في تفهم الشرع، لكن دور العقل بالنسبة إليه محدود.[27]

أما خروج المرأة للصلاة فعلى الرغم من أنهما اتفقا على أن الإسلام لايمنع المرأة من الصلاة في المسجد، إلا أن الأمير بين شروط خروجها بوضوح واختصار.[28] بينما ابن أبي الضياف فبين الشروط مع تفضيله عدم خروجها، لأنه بإمكانها أن تصلي جماعة مع أهل بيتها، وخروجها قد يكون فيه فتنة للمصلين.[29] وعلى الرغم من أن ابن أبي الضياف كان من المعجبين بالحضارة الغربية وبالحرية وغيرها من الشعارات إلا أننا لانجد أنه تأثر بتحرير المرأة وخروجها. أما عن سؤال عدم دخول النساء الجنة فقد استنكر الأمير عبد القادر الأمر بشدة ووصف الأمر بالكذب الافتراء. واستدل ابن أبي الضياف بالآيات القرآنية لإثبات دخول النساء الجنة مثل الرجال. لكن السؤال المطروح هل كانت هذه المعتقدات موجودة فعلا في المجتمع الجزائري والتونسي أم هي أسئلة مستوحاة من خيال السائل؟

يتضح لنا موقف ابن أبي الضياف جليا في قضية المساواة في السؤال الذي انفرد به دون الأمير، وهو سرور المسلمين بالمولود الذكر دون الأنثى، فأجاب أنه يستعان بالولد عند كبره بالقيام بوالديه عند عجزهما، ومنها إعانة والده على المعاش، وأن الذكر أفضل من الأنثى لأن أبا البشر أول مخلوق ومنه خلقت الأنثى، والذكر أَهَّلَهُ اللهُ للنبوة والخلافة في الأرض، والقضاء والدفاع عن الدين وحماية العرض والوطن، فابن أبي الضياف هنا يبرر ماهو في الواقع، ويبحث عن مايسوغه من التراث الفقهي، فهناك تباين واضح بين ماهو في الدين وماهو معمول به، ونظرا للوضعية السائدة المتوارثة أصبحت وكأنها الأصل المتعارف عليه[30]،فكان بكلامه هذا كما وصفه بعض الباحثين أنه متأرجح بين إثبات تفوق الرجل وإقرار المساواة.[31]

ب-مسائل الزواج والطلاق و تعدد الزوجات: حين سأل الفرنسيون لماذا يتزوج المسلم دون أن ينظر إلى المرأة قبل الزواج، كانت إجابة الأمير عبد القادر بالتفصيل اعتمادا على حكم الشرع بجواز النظر للمرأة بغرض الزواج، ومن العادات السائدة أيضا أن ترسل امرأة عاقلة تصفها له، والزواج من دون رؤية هو غرر والغرر يكون في الجمال وفي الأخلاق فلابد أن يرى الجمال ويسأل عن الأخلاق[32]، وبهذا أعطى الأمير جمال المرأة حقه من الاهتمام.[33]بينما أحمد ابن أبي الضياف فبعد أن بين حكم الشرع، برر عدم رؤية الرجل المرأة قبل الزواج أن هدفه هو الدين لا الجمال، حتى وإن مكّن له أهلها من رؤيتها، فإنه يأنف من ذلك إظهارا أن الرغبة هي الدين، أما الجمال فهو زائل.[34] وكأن ابن أبي الضياف هنا يوافق ماكان عليه المجتمع من عدم رؤية الرجل المرأة لأجل الزواج.

تتعلق بالزواج مسألة الصداق الذي يرى فيه الفرنسيون كأنه شراء للمرأة وحط من قيمتها، ويتساءلون لماذا الرجل هو الذي يدفع المهر، ثم أن الرجل المسلم يقصد المرأة الغنية لمالها؟ لقد أثار هذا السؤال الأمير عبد القادر، فأجاب بأنه ليس من الشرع ولا من عادات العرب أن يتزوج الرجل المرأة لمالها ولا يفعل ذلك إلا أخساء الناس، ومن فعل ذلك فهو لص وسارق، فليس الهدف من الزواج المال لأنه إذا زال زالت الألفة. والعرب حسب رأي الأمير لايحبون النساء لمالهن بل لذاتهن، وهذا عكس الأمم الأخرى. وينفي عن الصداق تهمة التجارة، والرجل لايرى أن المرأة ملكا له. وهو الذي يدفع المهر لأنه الأصل، والله خلق الذكر قبل الأنثى، وهذا موجود في العهد القديم.[35] ويرفض الأمير عبد القادر زواج البنت الصغيرة من المسن وزواج المسنة من الشاب الصغير، ويفضل الزواج المبكر تحصينا للزوجين. فالأمير يعتمد في إجابته على أصول الشرع، ويرد بشدة على الشبهات التي ألصقت بالإسلام من قِبل الفرنسيين.أما ابن أبي الضياف فيقتصر في هذه المسألة على تبيان حكم الشرع في الصداق ومقداره والحكمة من تشريعه، ويقول إنه موجود في التوراة، مستغربا بذلك تساؤلات الفرنسيين، ولعل ما اتفق عليه ابن أبي الضياف والأمير هو تبيان الحكم الشرعي، إلا أنهما لا يذكران ماهو موجود في مجتمعاتهم ولاينتقدانها.

بين كل من الأمير عبد القادر وابن أبي الضياف الحكمة من تعدد الزوجات، ففيه حفظ الدين والكف عن الزنا، ومن كانت سلامته في واحدة فهو أفضل، ويشيران إلى أن هذا موجود في الديانات السابقة. والغالب على العرب هو كثرة الشهوة، لهذا شرع الله لهم التعدد، أما غير العرب كما يرى الأمير فإنهم يكفيهم واحدة.

ولايستنكر كل من الأمير عبد القادر وابن أبي الضياف التسري والزواج من الجواري، فيقول الأمير: "إن العرب يحبون أولاد الجواري، ويقولون ليس أكيس من أولاد الجواري، لأنهم يجمعون بين عز العرب وعلو همتهم، وبين دهاء العجم وكمال عقولهم"[36]، أما ابن أبي الضياف فيرى أنه يباح لمن خاف الوقوع في الحرام أن يتزوج مملوكة برضى سيدها، مع علمه أن ولده يكون مملوكا لسيدها"فإرقاق الولد أهون من هلاك الدين"،[37] فكل من الأمير عبد القادر وابن أبي الضياف برر التسري، ولم يستنكراه، وعدّ الشنوفي موقف ابن أبي الضياف رجعية في تفكيره.[38] وعلى الرغم من أن قانون 1846 يمنع الرق فقد بقي ساريا بتونس.

الخاتمة:

-كانت الأسئلة بعد حوالي ربع قرن من احتلال الجزائر، أما تونس فلم تخضع بعدُ للاستعمار، وكانت تحت التهديد، كما أن السائل كان يسأل عن تصرفات المسلمين أكثر من السؤال عن حكم الدين الإسلامي. فهل هو هنا يفرق بين الإسلام وتصرفات المسلمين أم لا؟ والراجح أنه يسأل عن تصرفات المسلمين ويقصد بها الإسلام، وهذا من الشبهات التي كان الفكر الاستعماري يسعى إلى نشرها، وقد فرق بينها الأمير عبد القادر وابن أبي الضياف في بعض إجاباتهما.

-على الرغم من أن إجابتيْ الأمير عبد القادر وابن أبي الضياف في معظمها تقتصر على الحكم الشرعي، وربما لأنهما لايريدان مواجهة السائل باعتماد ماهو سائد، فلجأ إلى ما أقرته الشريعة، وقد تكون هذه نزعة دفاعية كان الهدف منها هو نصرة الإسلام، لأنهما

أحسا أن السائل هدفه هو الإسلام من خلال الكلام عن الواقع، إلا أنهما انساقا أحيانا وراء ماكان يهدف إليه السائل، فتعرضا لوضعية المرأة، ويبدو لي أنه في حالة اقتصار المجيب على الحكم الشرعي؛ فالظاهرة قد تكون موجودة فعلا في المجتمع وليست من خيال السائل. أما في حالة الاستنكار بشدة والنفي؛ فقد تكون غير موجودة أو نادرة، والأمثلة على ذلك كثيرة.

-كان الأمير عبد القادر وابن أبي الضياف متقاربين في الأفكار بالنسبة للمرأة.

-لم يؤد بهما تفتحهما على أوروبا إلى التخلي عن مبادئ الشريعة الإسلامية، فقد كانا لايتجاوزان حدود النصوص الشرعية.

-لم أجد أي اجتهاد منهما فيما يخص قضايا المرأة، بل أنها كانا في بعض الحالات يجاريان ماهو سائد في المجتمع.

- كانت الحالة الثقافية للمجتمع على درجة من التدني، سواء في الجزائر المستعمرة أو تونس قبيل الاستعمار.

_لم يكن المجتمع يتقبل تعليم المرأة ولا خروجها من بيتها خوف الفتنة وغيرة عليها.

-كان تعليم المرأة يقتصر على الضروري من أمور الدين، وعلى شؤون البيت.

- كانت المرأة سيدة في بيتها خاصة في الأسر الكبيرة فلا يتدخل الرجل في التسيير داخل البيت.

- كانت المرأة في الريف أسوأ حالا، فهي تعاني مشقة المعيشة وقسوة الرجل والتي تتخذها أحيانا كمفخرة لها.

- يتقارب المجتمع الجزائري والمجتمع التونسي في تعامله مع المرأة.

-موضوع المرأة في القرن التاسع عشر مازال في حاجة إلى دراسات دقيقة.

الهوامش

[1] **الأمير عبد القادر الجزائري**(1883-1808): هو عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن مختار الحسني الجزائري، أمير مجاهد وشاعر وعالم صوفي، ولد بالقيطنة بالغرب الجزائري، وتعلم هناك، أدى فريضة الحج مع والده في سنة 1241هـ، ثم زار بغداد ودمشق وعاد إلى الجزائر، وفي سنة 1833 م بعد استيلاء الفرنسيين على الجزائر بايعه الجزائريون على الجهاد، خلع عليه لقب الإمارة، فنهض وقاتل الفرنسيين وخاض عددا من المعارك ضدهم استمرت الحرب بين الطرفين إلى سنة 1847، حيث وقع معاهدة استسلام مع الفرنسيين، ونفي إلى طولون، ثم اطلق سراه شرط عدم عودته إلى الجزائر، فتوجه إلى بورسة ثم دمشق فاستقر بها إلى ان توفي رحمه الله. (عادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر**، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، 1980)

[2] **ابن أبي الضياف التونسي** (1874-1805): هو أحمد بن الحاج بالضياف بن عمر من قبيلة أولاد عون، وهي قبيلة حسينية مستقرة بسليانة، أسرته تنتمي إلى الولي الصالح سيدي أحمد الباهي. ولد بحي باب سويقة بالحاضرة في 1217هـ/1802، تلقى تعليمه على خيرة مشايخ عصره منهم إسماعيل التميمي وإبراهيم الرياحي، في سنة 1822 عين في خطة إشهاد بمدينة تونس، وفي سنة 1827 عين كاتبا بالبلاط الحسيني وبقي فيه إلى سنة 1864كلف بمهام سياسية دقيقة ومبعوث في السفارات إلى الخارج، توفي في 1291هـ/1874م رحمه الله (أحمد بن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، منشورات زخارف، تونس، 2016، ج.1).

[3]- زهير الذوادي، **الاستعمار وتأسيس الحركة الإصلاحية الوطنية التونسية**، ط.1، تونس 2006، ص.81؛ محمد القاضي، "الإصلاح والتحديث من خلال رسالة المرأة لابن أبي الضياف، **الاتحاف**، ع67، مارس 1996، تونس، ص.5؛ بركات محمد مراد، **الأمير عبد القادر المجاهد الصوفي**، دار النشر الإلكتروني، ص.38؛ وغيرها من المراجع.

[4] محمد القاضي، المقال السابق، ص.6-

[5]- المنصف الشنوفي، "رسالة أحمد ابن أبي الضياف في المرأة"، **حوليات الجامعة التونسية**، ع.5، 1968، ص.56-57.

[6]-أحمد عبد السلام، "مصدر الأسئلة من تلقاء أوروبا التي أجاب عنها ابن أبي الضياف"، **حوليات الجامعة التونسية**، ع.28، 1988، ص.13

[7]- أحمد عبد السلام، المرجع السابق، ص.17

[8]-المرجع نفسه، ص.14

[9]- الأمير محمد بن عبد القادر، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**، ج2، المطبعة التجارية-غرزوزي جاويش- الإسكندرية، ص.161

[10]- بوعلام بسايح، **من لويس فيليب إلى نابليون بونابرت، الأمير عبد القادر مغلوبا لكن مظفرا**، أعمال بوعلام بسايح، ج.1، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، 2010، ص.148

(11)- بشرى خيربك، "دراسة لبعض مغالطات المصادر التاريخية وتناقضها"تحفة الزائر في مآثر أخبار الجزائر" انموذجا للدراسة"، **مجلة دراسات تاريخية**، ع.118/117، جامعة دمشق، كانون الثاني /حزيران 2012، ص.424.

(12)-**Revue africaine**, N°284, 1912, p.5-8

جاء في المصدر نفسه أنه في 1848 عين مديرا عاما لشؤون الأهالي، بعد وقف القتال مع الأمير. وفي مصادر أخرى أنه في هذه السنة غادر مع الأمير حيث كان المكلف الشخصي بأموره.

(13)- الأمير محمد، مصدر سابق، ص.178.

(14)-المنصف الشنوفي، مصدر سابق، ص. 70.

(15)-الأمير محمد، مصدر سابق، ص.178

(16)مرجع سابق، ص.434

(17) مرجع سابق، ص.85.

(18)- المصدر السابق، ص. 71.

ويقصد بذلك أن المرأة تتعمد إثارة الزوج حتى يضربها، وتفتخر بذلك لأنه دليل على حبه لها وغيرته (19)- عليها.

(20)- المنصف الشنوفي، مصدر سابق، ص.82.

(21)- الأمير محمد، مصدر سابق، ص.167.

(22)- المنصف الشنوفي، مصدر سابق، ص. 83.

(23)- الأمير محمد، مصدر سابق، ص.173.

(24)- المصدر نفسه، ص.167

- أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**،ج7، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص.183 (25)

(26) محمد القاضي، مرجع سابق، ص.11.

(27)- المصدر نفسه، ص60.

(28)- الأمير محمد، مصدر سابق، ص.180.

المنصف الشنوفي، مصدر سابق، ص.97(29)-

(30)- دليلة بن عمر،"المرأة بين أبي الضياف وقاسم أمين"، **الحياة الثقافية**، السنة 30، ع.168، تونس، أكتوبر، 2005، ص.27

محمد القاضي، مرجع سابق، ص.8 (31)

الأمير محمد، مصدر سابق، ص.161 (32)-

(33)- ترى شيرين دقوري من خلال دراستها لتجليات مفهوم المرأة عند الأمير عبد القادر من خلال مؤلفاته، أن مفهومه للمرأة تطور عبر مراحل حياته، وأنه كان محبا للمرأة ولجمالها حبا شديدا وفقا لمفهومه الخاص، وترجعها إلى عدة أسباب تاريخية وتربوية وشخصية وميتافيزيقي، ومذهبي. للمزيد:

http://books.openedition.org/ifpo/2513?lang=fr

(34)- المنصف الشنوفي، مصدر سابق، ص.74

(35)- الأمير محمد، مصدر سابق، ص. 162-163.

(36)- المصدر نفسه، ص. 165.

(37)- المنصف الشنوفي، مصدر سابق،ص.76

(38)- المصدر نفسه، ص. 61.

قائمة المصادر والمراجع:

1-المصادر:

-الأمير محمد بن عبد القادر، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**، ج2، المطبعة التجارية- غرزوزيو جاويش- الإسكندرية، د.ت

ابن أبي الضياف (أحمد)، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، منشورات زخارف، تونس، 2016، ج.1

-الشنوفي (المنصف)، "رسالة أحمد ابن أبي الضياف في المرأة"، **حوليات الجامعة التونسية**، ع.5، 1968، **Revue africaine**, N°284, 1912 -

2-المراجع:

-بركات (محمد مراد)، **الأمير عبد القادر المجاهد الصوفي**، دار النشر الإلكتروني

- بوعلام بسايح، **من لويس فيليب إلى نابليون بونابرت، الأمير عبد القادر مغلوبا لكن مظفرا**، أعمال بوعلام بسايح، ج.1، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، 2010ص.148

-الذوادي(زهير) ، **الاستعمار وتأسيس الحركة الإصلاحية الوطنية التونسية**، ط.1، تونس 2006 -

سعد الله (أبو القاسم)، **تاريخ الجزائر الثقافي**،7، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998

- نويهض عادل ، **معجم أعلام الجزائر**، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، 1980)

المقالات:

- خيربك (بشرى) ، "دراسة لبعض مغالطات المصادر التاريخية وتناقضها"تحفة الزائر في مآثر أخبار الجزائر أنموذجا للدراسة"، **مجلة دراسات تاريخية**، ع.117/118، جامعة دمشق، كانون الثاني /حزيران2012

-دقوري شيرين: http://books.openedition.org/ifpo/2513?lang=fr

-عبد السلام (أحمد)، "مصدر الأسئلة من تلقاء أوروبا التي أجاب عنها ابن أبي الضياف"، **حوليات الجامعة التونسية**، ع.28، 1988، تونس

-بن عمر(دليلة)،"المرأة بين أبي الضياف وقاسم أمين"، **الحياة الثقافية**، السنة 30، ع.168، أكتوبر، 2005، تونس،

-القاضي (محمد)، "الإصلاح والتحديث من خلال رسالة المرأة لابن أبي الضياف"، **الإتحاف**، ع67، مارس 1996، تونس.

ملف للقراءة